

الخطاب السياحي الصحراوي وتجاذبية الجمالي والثقافي في نص
" هنا ولدت " للشاعر " محجوب بلول "

The Touristic Discourse and the Aesthetic and Cultural Appeal in the Poem "Here I
WAS Born by the Poet Mahjoub Belloul"

ط د: بشير قعر المثرّد^{1*}، د: فوزية تقار²

¹ جامعة الوادي، (الجزائر) bachir-garelmethred@univ-eloued.dz

² جامعة الوادي، (الجزائر) reggar-fouzia@univ-eloued.dz

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ النشر: 2025/00/20

تاريخ المراجعة: 2025/11/02

تاريخ الإيداع: 2025/07/02

ملخص:

يعتبر الخطاب الشعري الصحراوي فضاء خصبا لإغراء القارئ بال جذب السياحي، فهو بذلك يشكّل وعيا جماليا متصاهرا مع آليات فنية مجازية بالغة التأثير، أين تستنفر الوظيفة القرائية طاقاتها بالتجول في تخوم الملابس الانزياحية والاستعارية التي تلهب رغبة المتلقي في تمثّل المكان الصحراوي واستشعار جماليات العمران والأطلال والعادات والتقاليد.

وهو أيضا ذلك الخزّان من الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة الباحثة غالبا بواسطة غير الجمالي عن الجمالي، بغية تأبير الفكرة الأدبية ومدى ارتباطها الوثيق مع صور الواقع والحياة، وهي محصلة تتكشف بوعي عبر مستوى التحليل الثقافي الذي دعا إلى اختراق نسيج الخطاب بهدم جدار الفصل بين المركز والهامش، ووضع المعطى الأدبي تحت طائلة المساءلة الثقافية جنبا إلى جنب مع السطوة الاغرائية الجمالية.

إن أبعاد الخطاب الشعري الشاسعة العميقة لم تعد تكتفي بملاسات خيالية تجعل القارئ حبيسا لنشوى التصور أو رهينة غنائم مجازية مجنّحة، إذ يبدو أنّ هذا المنتهى الفني للنص عبر مستوى التحليل الجمالي معزولا، مالم يتفاعل تفاعلا تكامليا مع مفرزات الثقافي، بوصفه وعيا وممارسة كاشفة لشتى أنماط الوقائع والتحوّلات المرتبطة بالفضاء والأفراد والمجتمعات.

وعلى عين النحو سيتجه فحوى هذا المقال، عبر حضور نص " هنا ولدت " للشاعر الجزائري "محجوب بلول" لنستشف من خلاله مدى اكتفاء الاستقصاء الخطابي بقراءة جمالية أو ثقافية فريدة، مقابل حاجته لكليهما معا، وذلك من خلال بعث فضاء الصحراء وهويتها من الوجهة السياحية تحديدا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب السياحي، الصحراء، الشعرية، الفضاء الأدبي، الفضاء الثقافي، الهوية.

* المؤلف المراسل.

Abstract:

The Saharan poetic discourse represents a fertile terrain for seducing the reader through touristic allure. It thus embodies an aesthetic awareness intertwined with highly effective figurative and rhetorical mechanisms whereby the reading function mobilizes its full potential to traverse the contours of metaphorical and deviation-laden contexts. These elements ignite the recipient's desire to envision the desert landscape and to sense the beauty of its architecture ruins customs and traditions.

More than a poetic indulgence this discourse operates as a cultural repository—both explicit and latent—where meaning often emerges from the tension between the non-aesthetic and the aesthetic. It seeks to fertilize the literary idea with lived reality forging a deep connection between poetic imagery and everyday life. This dynamic becomes especially visible through the lens of cultural analysis which dismantles binary oppositions such as center and margin positioning the literary text within broader cultural interrogations while preserving its aesthetic seduction.

The expansive and profound dimensions of poetic discourse then is no longer confined to imaginative escapism or the ornamental play of metaphor. Its full significance only emerges when read in tandem with its cultural undercurrents which reflect and refract diverse realities and transformations related to space individuals and communities.

This article follows such an approach by engaging with the poem "Here I Was Born" by Algerian poet Mahjoub Belloul as a case study. It examines whether aesthetic or cultural readings alone can account for the complexity of poetic discourse—or whether their intersection is necessary especially when the poetic space in question evokes the desert not merely as a symbol but as a site of cultural and touristic identity.

Keywords: Touristic discourse the desert poetics literary space cultural space identity.

تقديم:

عُرف الخطاب الشعري على أنه نسيج لغوي رامن، قلق مفتون لا يستقر على معنى، فهو مفتوح متعدد الدلالة، يبحث له عن تأويل متعاقب متجدد من لدن قارئ متفاعل واع، وذلك وفق ملاحقة الرؤيا المتخفية والمكشوفة، تلك التي يستحضرها النص ويتبناها التأثير الفني عبر تفرد اللغة، وانبثاق الصور الشعرية الحسية والمجردة.

وقد أثرنا من خلال هذا النص الشعري ضمن ديوان "تقاسيم سفر" للشاعر الجزائري "محجوب بلول"، أن نرصد تجليات الخطاب الشعري السياحي الصحراوي، من خلال تعقب عناصره المكانية والعمرانية، واستثمار أبعاده الفكرية والتأملية بما يحقق تجولا سياحيًا معنويًا، يتوازى مع تحفيز القارئ بوصفه زائرا

في نص " هنا ولدت " للشاعر محجوب بلول

مفترضاً للصحرَاء من بوابة الأدب والجدب، وذلك بتوليف قراءة نصية متميزة، تستمد رؤيتها من الشحن الخيالي للصورة الشعرية وحيزها من جهة، ومن الحفر النسقي للمرجعية الانتمائية ومخاضها الهوياتي من جهة أخرى.

وعلى هذا النحو سيجد النص الأدبي عموماً والشعري منه على وجه الخصوص نفسه أمام مراوحة حرجة، ووظيفة قرائية انتقائية حاسمة بين الدرس الجمالي بوصفه نشاطاً انفعالياً و" أن الخطاب الشعري هو بالدرجة الأولى خطاب تخيلي¹؛ والدرس الثقافي باعتباره "فرعاً من فروع الألسنية معنى بنقد الأنساق المضمرة، التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه وصيغته"²؛ ففي حين تشتغل آليات التحليل الأدبي بما يستهدف الكشف عن العناصر الفنية، بغية ترسيخ النموذج المثالي أو الحلم كأحد سبل المحاكاة والتمثيل الفني وفق المنظورين الأفلاطوني القديم و الجمالي الجديد للشعرية المعاصرة، تفوض المستجدات النقدية لآليات التحليل الثقافي تجاوز ذلك، بل تعيد لنا تلك الإرهاصات الفلسفية المجابهة للتيار الخيالي فيما عابه أيضاً أفلاطون حين "وصل إلى رأي قاطع، وهو وجوب طرد بعض الشعراء من الدولة وحجته في ذلك افتقار الشعر إلى الحقيقة"³؛ ما يعني قلق الفكرة وتجدد مسألة تخندق بواعث النص في الوهميّة، على حساب الانتباه إلى أنساق راسخة متخفية تحت طبقات النص أو معلنة مخاتلة فوق طبقاته، يظل رهانها سواء كان متقبلاً أو منبوذاً خارج لفت القارئ، لذا وجب الكشف عن تأثيرها بوعي شديد خارج أسوار العاطفة والتجميل والغفلة، لتكون أيضاً مكافأة لنصية المبدع، سيما تياره الضمني المضمّر، فيما لم يقله بوعي الكتابة أو خارج وعيها.

وفي هذا المقال ستتحري المسألة جدوى تضامن القراءتين من عدمه، لتجريب استقصاء أعمق إدراكاً بملايسات الخطاب وأسراره الكامنة، وذلك عبر طرح الإشكالية التالية:

هل يشكّل ترشيح النقد الثقافي على حساب الآخر الجمالي أو العكس، تقويضاً للفسحة الرؤيوية الشاسعة للخطاب الشعري الصحراوي؟

ويشخص الانشغال المنبثق مدى تضامن الفضاء الحالم مع الآخر اليقظ من منظور الوعي الجمالي والثقافي، وأثر ذلك على نص "محجوب بلول" أثناء تأصيل قراءة سياحية صحراوية متواشجة.

وللإجابة والانخراط في معالجة المسألة، سنطرح فرضية تقويض رؤيا الخطاب بالتخلي عن قراءة دون أخرى، أمام مقابلهما معاً، وطرح اختبار يستثمر انطباع وموقف المتلقي من فصل أو وصل مؤشرات التعبئة المجازية مع مرايا النقد الثقافي بتيّاره النسقي وأسئلته المحيطة.

أولاً: الفضاء الجمالي و أفق السياحة الأدبية:

لا شك أن الفضاء هو تلك المسافات والتضاريس والفسح التي تشكل جغرافيا الخطاب وأبعاده الرمزية والتأويلية، مثلما أن المكان أيضاً هو جزء لا يتجزأ من هذا الفضاء مفتوح الأفق، ويعتبر المكان إحالة شديدة الارتباط بهذا المصطلح، فهو يتموقع في أرجاء الخطاب تصريحاً وتضميناً، فضلاً عن تحريره رفقة (الانزياح)، كأحد المثارات النصية التي تسافر بالحواضن من مألوفها الواقعي إلى مناطق التخيل، توسلاً بالعبر جمالي للوصول إلى فضاء الصورة الشعرية وتشكّلاتها التي تدعو للتأمل والتأويل.

1. شعرية المكان:

في نص " هنا ولدت " للشاعر محجوب بلول

يحتل المكان أهمية بالغة في الخطاب الشعري، بوصفه فضاء مغلقا في المتن الإبداعي ومفتوحا أثناء تأثير اللغة المجازية على متخيل القارئ الآخذ بالتصور والتمثل، والمكان قد يكون حيّزا " ولذلك يصبح الحيز الحقيقي ضربا من المكان الجغرافي؛ ولكن أولى أن يطلق على هذا الحيز الحقيقي (المكان)، كما أراد له كاتبه أن يكون"⁴ ويبدو أن الشاعر "محجوب بلول" منذ العنوان " هنا ولدت..." إلى حين تكراره بصدر البيت الأول (هنا ولدت) ولوح الله قد كتبنا *** أن أعشق الرمل والكثبان والقباب...⁵

قد وقّع استهلالا عجلا متجانسا، لكنه عكس تريثا تأمليا للقارئ عبر هذا الاحتواء الإشاري، التي اعتزلت عنه المعالم الإسمية للمنطقة أو المدينة، ما أفرز فراغا تكفل بمثلته التأويل ومجموعة من السياقات ذات الإحالة المرتبطة بالمكان وتفاعلاته مع ملابسات العملية الإبداعية تحديدا.

وبعث المؤشر (هنا) التقاطا قلقا لعناصر المكان، تراوحت فيه الرؤية بين السعة والضيق، بما حمله من كثافة دلالية وولع إغرائي واش، فارتسمت تقاسيم هذا المهد الصحراوي المعشوق، انطلاقا من بسيطته الرمل كملونات مريثة حتى مكاشفة البيت ما قبل الأخير، وهو ما صعد من شعرية التشويق والإرجاء إلى حين مضارعة انبثاقات المشهد الجمالي من نوافذ معمارية تلوح بسحر القباب، وأخرى طبيعية تلوح بأسر الكثيب.

لقد راهنت هذه الشعرية التشويقية التي تماهت مع جمالية الاستهلال والتكرار والانحصار والانفتاح، وبصدي الإيقاع الوجداني لعبق المكان والمهد على تأبيد مجاز التعلق والارتباط، فعشق القبة والكثيب اعتراف حميمي يعتدّ بتصاعد الوظيفة، عبر انثناء يد الكتابة من وسيلها القلم إلى وعاءها اللوح، ثم استخلاف عين الوسيلة بالوعاء الرؤيوي المحفز على التأمل في جميل صنع الله، وغبطة الانسان بما حظّه به و أنعم. وحثّ المكان بواسطة الإشارة إلى الروافد الجغرافية والعمرانية، تبادلا متدرجا للأدوار لم تسعفه الاستعارة فحسب، بل عززته عقيدة الشاعر المضطلة ببعث نشوى نفسية جمالية متعالية، تتحصّن بكرم الوجود وهدايا الفضاء وعبق الانتماء، وهو ما أشار إليه "غاستون باشلار" في كتابه "جماليات المكان" إذ يتجلى المكان بوصفه كيانا هندسيا واقعيا. بحيث يعد البعد الجغرافي للمكان ممثلا لأبعاده المميزة له. وشاعرية المكان التي تظهر وتجسد لنا المكان الأليف أو بيت الطفولة الذي يتسم بقيم الحماية والأمان والاحتواء"⁶

وتجول بنا الأبيات المتوالية إلى مرافق سياحية ساحلية، تستشعر منها انخراط الصحراء مع زرقعة البحر والسماء، بواسطة التوليف الإيحائي وتشوير العلامة البصرية المكانية، فضلا عن دلالة السقوط على حواضن الصحراء سقوطا كحد السيف أثناء ترميز معتزك الولادة وصرختها الأحوى، وتعميرها بسردية تجوب الأفلاك العائمة والسحب المنهمرة

سقطت كالسيف والأنسام تسمعي *** حكاية هزّت الأفلاك والسُحبا⁷

وشكّل بوح الأنسام بسرّ الحكاية، استعارة حائّة على ترقب فحوى التفجير المكبوت بصدرها، واستندراجا للمنأى السردى في كسر الحاجز الأجناسي بينه وبين الشعر، وفي انتقال المعنى الغارق من كثبان الرمل إلى بحر (الحكاية) ومن موجها إلى سحب سماءها، في توليف ارتداد الصورة عبر الامتثال الحسيّ المادي للفلك والسُحب المهتزة بفعل الوجود والكينونة الإنسانية "فليس هنا وجود لشيء وهمي، هنا... الزمان والمكان تحت سيطرة

في نص " هنا ولدت " للشاعر محجوب بلول

الصورة (في مكان آخر) (وسابقا) أكثر قوة من (في الحال)، (الوجود هنا) يتحقق من خلال كوننا من مكان آخر، المكان، المكان الفسيح هو صديق الوجود"⁸.

ويأتي استدعاء الأفلاك إلى حواضن الصحراء، تأهيلا لتقاسم أحوى وأكبر فسحة لحواضن الإنسان خارج حدود بيئته الصحراوية، بتوغل امتدادها الجغرافي الوطني والكوني، فضلا على اعتبارها تأليبا ذهنيا سياحيا محفزا للزائر المتخيّل للمزار المتخيّل، واستدراجه بالالتفات إلى تلك الفضاءات الاحتوائية وما تعكسه من جذب وتأمل.

هذا واندرجت الصورة الشعرية المنصهرة مع المكان ضمن تأهيل مجازي، تبادرت جمالياته الإيحائية والقيمية من خلال فحوى الشاهد الآتي....

وعلمتني أصول عند والدتي *** إياك أن تهجر الأخلاق و الكتب⁹

إذ ثبتت سقف الإيواء بأسس الفضيلة وأعمدة العلم، بما انتقلت عليه دلالة الهجر من انخراط في العمار، عبر تشريد مقووضات هذا البناء المعرفي الأخلاقي.

2. شعريّة الانزياح:

يعتبر الانزياح أحد أهم الظواهر الأسلوبية التي تمنح للخطاب بعده الفني والجمالي، بواسطة العزوف عن المألوف، وانهماك اللغة في اختراق الرتبة المعنوية والدلالية، ورغم غرق الانزياح في الوهمية حيث عدّ "احتيال الانسان على اللغة وعلى نفسه لسد قصوره وقصورها معا"¹⁰؛ إلا أنه قول يحتاج إلى مرافقة جدلية تنصف مبعث هذه الظاهرة في تكريس ومحاصرة الحقيقة بتيار فني بالغ التأثير.

يكشف لنا ديوان "تقاسيم سفر" في عتبته الخلفية المرتبطة بالغلاف، عن كثافة دلالية ترتبط بالنص المتناول، وعن تداوليّة مفهوميّة للشعر كممارسة إبداعية تنفذ أبواب الحلم نفاذا مطلقا، أو تفتحها فتحاً مقيدا "ومن هنا يأتي اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها"¹¹؛ لكنها تظل تتقاسم أنماط اختراق اللغة، ومحاصرة وعي المتلقي حتى يسلم بالعدول عن الواقع الصادّ، والولوج إلى عوالم الصور الشعرية، فيصير انتداب الخيال تمسكا بالمفارقة والأمنية وأملا في تحقيق ما لم يتحقق

أشتاقُ أن أحكي حمامًا زاجلا *** وأزفُ أحلاما من الصَّلواتِ¹²

ويبدو أن هذا الدفق الرمزي لصورة الحمام الزاجل والأحلام السّاجدة، قد كثّف من شعريّة سرديّة واعدة بالصفاء والسلم والجمال، غير أن الفتح المجازي الغانم بكنه الشعر، لم يلبث في البيت الأخير أن استنجد بالانزياح عن رهف المفهوم، إثر تبادل الموقف وتشظي الثبات بواسطة حرف الاستبدال "أو"

ف (الشَّعرُ) في لغتي سلامٌ حالمٌ *** أو غزوةٌ تمشي مع الغزواتِ¹³

ومن العتبة إلى المتن يعلن الشعر نفسه مع الشاي إنشادا بعد أن اصطحبا سُكرا بديلا، وفي ذلك انعطاف لفظي شديد التّوسل بالمجتنب، تظفرا بالمعنى السياحي

... وجلست رفقة الخلان أنشدتهم *** والشاي يسكر عشق الرمل إن سكبا¹⁴

في نص "هنا ولدت" للشاعر محبوب بلول

فقد عزز انزياح الرؤية الإبداعية ارتباكاً في معرض تشظي القيمة حتى وإن برأها المعنى الشاعراً، فالبيت الشاهد ما هو إلا استدراك غذاء العدول فأنج لنا توتراً في معادلة السكر، تأرجحت بها كفتا الموقف بين توطين وتشريد اللفظ الخمري، قبل استخلاص شعرية السكر وهي تتحصن ببراءة المجاز الرملي.

وقد ظل حضور هذا التداعي المتواطئ شكلاً ومبنى لأكثر من عقد من الزمن، محفوراً في الذاكرة التفاعلية لديوان "قلم يتحمل المسؤولية" الصادر سنة 1997م، ليرسخ أثراً سالفاً بسكب المغيب الدلالي على كأس المدلول الصّاحي، حين الجزم بأنّ الشاي و الشعر (خمر) إنهما اصطبحا.

إنّ تبرّم هذا الموقف وارتبأكه لدليل على انصهار الشعر كرمزية للحال، وكمعلنات نفسية توضح صراع الشاعر مع المنغصات والمقومات الجمالية وكيفية تكييفهما مع المبتغى الجمالي المنشود، ولعله في غمرة هذا المعترك يغدو نموذجاً أكثر تطريباً للإنسان، وأفصح توليفاً للقيم المسالمة وبثّ روح الجمال، وفرملة تيار التغوّل على حساب بسط ما يمكن بسطه من تصالح وسلام وألفة، وتغمرنا لغة "محبوب" بحشد من المثارات الخيالية ذات الصلة بالأسر والاشتياق، فسرّد الحمام زاجلاً، وزفّ الأحلام عروساً، وشكّل اللغة سلاماً حاملاً، ليؤكد استمرار الرسم بالكلمات في النأي عن واقع مرتبك، وتثوير ما قبع خلف الغطاء اللغوي المجنّح قبل كبح منسوبه بفرامل الغزوة، استنجداً بنفس الواقع في استدراج الحلم، ذلك أنّ "جوهر الشعر منفعل بدليل تخصّبه مع المقولات، كما أنه يتلقّف فعل الوجود بكافة مستوياته الكلية والجزئية.. لا لكي تهمّشه أو تدمّره بل لكي تخصّبه وتجعل منه نابضاً حيّاً".¹⁵

وقد وشى الشاهد بتعويم التيار المجنّح بالاستئناس بمتنفس يقتضيه الواقع وتنبّاه العادات والتقاليد الاجتماعية، بتأصيل مشهد سياحي لمنطقة وادي سوف، وهو التفاف جلاس الأنس في الجلسات الرملية، أمام إصغاء صوت الحكمة والإنشاد والشعر، وارتشاف الشاي المسكوب من إبريق يتصاعد بالبخر، وكؤوس يتبادلها الحُضار، مما خلق انفصاماً دلالياً حيواً، فبات الشعر والشاي خمراً مرغوباً، والخمر فراغاً منبوزاً، وذلك بفعل التأثير الإيحائي المرتبط بإحياء القيم الجمالية والأخلاقية، والاستنجد بسلام التقويم وصدى القول المراهن على وقع الإغراء وخلق الصدمة في وعي القارئ، فتداعى الخمر بحواسّه الإيحائية المتلاشية، وانخرط البديل المسكوب وقرينه المقروض في نفس السلوك السفلي ومباركة السلوك المتعالي.

إنّ هذا التناغم القرّائي وسّع من فسخ السياحة الذهنية، وكثّف اعتماراً في الصورة الشعرية المجنّحة بالحمام الزّاجل إلى مدن السّلام وحماته، كما جسّدت لنا محافل الأنس بالإيقاع المنضبط على صوت الصحراء ونخب الكأس الحلال، انصهاراً مع رشاد القيم الفنية وصحوها، فجاءت جاذبية الصّورة فارة عن المألوف إلى مسافات المفارقة، لتكون صحواً في مرافق الحلم والأمنية، وسكراً في مرافق العظة والحكمة، أثناء سفر الذاكرة انزياحاً إلى محطات تاريخية واجتماعية مثلى.

فالشعر إذن أصبح بتلك الروافد سلاماً ينزاح إلى غزوة، ونشوى تنزاح إلى قيم متعالية، بوصفه جسراً لغويّاً للعبور إلى مواطن اللّفت والجمال والامتع، "إن الانزياح يتغلغل في مسارب الأدبية عامة والشعرية على وجه الخصوص تغلغلاً يصح معه القول أنه يقع منهما موقع القلب إلى الجسد، فإذا القلب هو ما يمد الجسم بالدم والغذاء، فإن الانزياح وحده من يمد الشعرية موضوعها الحقيقي".¹⁶

في نص " هنا ولدت " للشاعر محبوب بلول

غير أن خاتمة النص انحرفت بنا إلى الضفة الأخرى من الاغتراب، ولم تشفع هذه المحافل الاستعراضية أن تشني ولع القارئ على تقصي هذا العدول، واستطاعت التجربة الإبداعية للشاعر أن تكثف للقارئ مسؤولية الحفر عن تشظي التجانس الذي التأم طيلة أبيات القصيدة سوى من اعترافه النّازف الشاكي في بيتي رسالته الخاتمة

حملت يا سوف أحزاننا مراقصة *** على الطريق وكنت أنت لي سببا¹⁷

يا قبة الخلد يا مهدي ويا سفري *** ضاعت قلاعي ورملتي من دمي شربا¹⁸

إننا أمام تشتت للصورة الشعرية وفق مستويي بناءها الكلي والجزئي، حيث تكفلت النهاية النصية بتأثيرها الانطباعي على تراخي المشهد الصحراوي الآسر، وعلى منسوب رصيده في ذهن قارئ سياحي زائر، وهو يقف على حافة التأسر الذي ألهمه الشاعر تأبيننا لضياح تلك القلاع.

غير أن تشبث الصورة الشعرية بضياحها بدلا من تدهمها أو انهيارها أو استدعاء أطلالها، حفّز المعنى وجعله غنيمة للإثارة والدهشة والارتباك، وهي محصلة لتدارك هذه القلاع الصحراوية التي أنصفها الشعر بذكرة تتأرجح كالإنسان بين الاهتداء والضياح، وحشد لها خارج المؤلف زخما حركيا له أقدام تسير ومقاصد تتيه، لينتصر هذا البعث الجمالي في توطيد ارتباط الوجدان الانساني بحضور المكان، وتأسير ذاكرته بسطوة الفقد والغياب.

ثانيا: الفضاء الفكري و أفق السّياحة الثقافيّة:

يستمرّ المطلب الثقافي في حشد السّبل الاستقصائية ذات الصّلة بتحريك الوعي العميق المتماسّ مع تفاصيل المجريات الحياتيّة، ومساءلة المعطى الأدبي تحت وصاية الأنساق وحيثياتها، ومنطلقات الفكرة وفلسفتها العقلية والنفسية، لكن الاشتغال القرائي هنا سيركز على بناء الخطاب السياحي بوصفه معرضا للصحراء، وتمظهرات أنساقها المعلنة والخفية بما يقتضي من فرملة للمكثفات المجازية العكسيّة، وتعويضها بالتجسّر العبر ثقافي وصولا إلى جماليات وظيفية تتكشف بالمجاهة الضدية للنقيض، وهو نأي يتغور ويرسّخ في الضفة العميقة الأخرى، فضلا عن تزكية وظيفة القارئ الثقافي المرتبطة بما يجري المقصد من استعراضات مكانية وتراثية وتاريخية واجتماعية وشعبية، لها صلة وثيقة بالحيز والهوية، تلبية لروح الفكرة العميقة التي انطوى عليها الخطاب.

1. الحيز... تشاكل الأنساق وسؤال الاحتواء:

يكتب الشاعر قصيدته بتعبئة تشحنها المرجعية المكانية والدينية والوطنية، والشاعر " محبوب " وهو يطلق إشارته الميلادية بحيزها المطلق، يكون قد عزز من اعتداد الخصوصية المحلية بامتدادها الانتمائي الجغرافي الوطني والكوني، أين يتبادل الاحتواء تمركزه من فضاء القيمة المعنوية إلى فضاء الكتلة المادية، في محاثة بنائية تداولية بين المقيد والمطلق، والمغلق والمفتوح، بما تتطلبه المسألة الفكرية ويرغب فيه المضمّر الخطابى من بعث وترسيخ، وجاء في مطلع القصيدة

هنا ولدت ولوح الله قد كتبنا *** أن أعشق الرّمل والكثبان والقببا¹⁹

سقطت كالسيف والأنسام تسمعي *** حكاية هزّت الأفلاك والسّحبا²⁰

في نص " هنا ولدت " للشاعر مجحوب بلول

وفي المستهل (هنا ولدت) توسيع مرتبط بدواعي التمثّل (الأفق)، وتحييز مرتبط بدواعي التّشكّل (سوف)، يمكن تقويضه بشرعية الانتماء إلى أمكنة مغلقة كالمنزل والمهد، أو تطويحه بشرعية الاحتواء إلى فضاءات مفتوحة كالوطن والأرض وما تناغم من فلوّات.

ورغم تراسل أنساق الحيز الجغرافي التي رسخت الخصوصية السوفيّة بنطاقها الصحراوي على واجهة المكان، إلا أن الهيمنة الاحتوائية للفضاء في البيت الثاني بذكر "الأفلاك" شكل تحاوراً مع مفردات الصحراء لاستكناه المضمّر الانتمائي الأحرى، والالتحاق بنطاق الفسحة الرؤيوية الساحلية (البحر)، والطبيعية (السحب، المطر) وهي أنساق حيزيّة ضدية بالنظر إلى طبيعة الصحراء، لكنها أسهمت في فرملة الهيمنة الانطوائية وبعث الحيز الداخلي إلى أبعاده الخارجية "فكأن الحيز خاص، والفضاء عام، فقد لا يكون مع الحيز فضاء، في حين أن لا مناص من وجود الحيز في الفضاء".²¹

يعلن ضمير الأنا الشاعرة في الشاهد السابق عن الانتساب إلى القول وإلى الرقعة الحاضرة، ثم تستمر الإحالة الضميرية في بعث ذلك من خلال تفويض الحيز للمجرد (الأخلاق) وللمحسوس (الكتب) بفعل السطوة المجازية المجارية لمحاذاير الهجر

وعلمتني أصول عند والدتي *** إياك أن تهجر الأخلاق والكتب²²

وجلسني رفقة الخلّان أنشدتهم *** والشّاي والشّعر خمر إن هما اصطحبا²³

غير أن مساءلة هذا المعطى الأدبي مساءلة ثقافية ستحيلنا إلى حقيقة حاسمة يتبناها النقد الثقافي، وهي التمييز بين الحيز الذي يكتبه الشاعر والحيز الذي تقوله الثقافة خلف تلك الكتابة، وهي تنفذ إلى النسق المضمّر "من حيث هو دلالة، فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنها من كتبة ومنغرس في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء".²⁴

مما يلبي حتمية استقصاء تلك الأنساق المضمرة المتراكمة تحت طبقات الواجهة التقويمية الاستعراضية الموهلة في التحذير، والعاكفة على بناء قصور الحكمة والأخلاق ومعاقرة الكتب، لتكون ملاذا لصوت أصول الوالدة قبل أن تكون مأوى للمولود.

ويكشف الحفر الثقافي عن رغبة ملحّة في الحصول عن تشظّ بينه وبين المقطع الشّعري، وعن ترسيم حدود أعمق من المؤشّرات المعنويّة والدلاليّة المرتبطة بحيّزه الجمالي، وهو ما يستثمره الوعاء الثقافي لتعزيز التغطية التفسيرية النسقية المتغلغلة في عمق المكنون الخطابي "والنسق هنا ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، ولهذا فهو خفيّ ومضمّر وقادر على الاختفاء دائماً، ويستخدم أقنعة كثيرة، وأهمها -كما ذكرنا- قناع الجمالية اللغوية، وعبر البلاغة وجمالياتها تمر الأنساق آمنة مطمئنة من تحت هذه المظلة الوارفة".²⁵

والمتتبع سيتحرّى انحصاراً حاسماً في الرؤيا المتقاسمة، بين ما تحرّر من مساءلة وما تخندق من شعر، إثر الهيمنة المحلية التي تشبّثت بالخصوصية البنائية داخل وعي السّياق، وستربص به تساؤلات يغذيها الغياب، لماذا توارى الحيّز الهادم لأسس الفكرة الشعرية، وهل من صدى لصوت الهامش أثناء الجهر بمكبر صوت المركز؟ وكيف يمكن الالتفات عنق بحيات ضدية أنتجت بفعل تغطيتها محاذير الحكمة من الوالدة؟ وعجلت باستخلاص نشوى السكر بالخمير الحلال، وهل كان انخراطها المضمّر في حيز قيمي جمالي كسلوك منحرف،

في نص " هنا ولدت " للشاعر مجحوب بلول

تحفيزاً للفضيلة وما أزرها، أم كشفاً ينذر بارتباكها بما يوازي كتلة التغافل عن أنساق نازقة تأخذ بالرسوخ والتخفي؟ وسوف لن ينتهي هذا التدفق الاستفساري المثير، إلا بتفسيح التجربة التأملية على مستوى محيط النص وخارج أطره اقتفاء وتجاوزاً.

ويبدو أن النقد الثقافي لا يستيقظ إلا بخلخلة النسيج المتخفي في الخطاب وتوسيع مداركته الصريحة أو تضيقها تحت حصار المضمير المستفحل، وترويض الأنساق المخاتلة أو تلك التي جثمت على متعلقاتها ترويضاً عكسياً مترثاً، يستهدف الإنصاف والإلمام والإقناع.

2. المقاومة...تشظي الأنساق وقلق الهوية:

يتشاكل مفهوم المقاومة مع فكرة المجابهة والتصدّي كتيار يحاول مغالبة غزو العولمة، والحد من اختراقه الجدار الهوية الثقافية للأمم والشعوب والمجتمعات، و"لقد غلبت العولمة المجتمعات وهي مصحوبة بتغيرات تقنية واقتصادية كبرى، غالباً ما تتم مماثلتها ببساطة مع الحداثة"²⁶؛ وليس هذا فحسب، فإسناد فوضاها إلى المصطلح إنذار بدق ناقوس التلاشي، وامتنعاص لكل ما رجّحه النظام التقليدي من منافحة وتوازن وانضباط.

والنص الذي بين أيدينا، استطاع أن يختزل الوعي الجمعي في محاولة ترميم الهوية السوفية الصحراوية بشتى الطرق اللغوية المبتكرة والمروجة، لما لها من تطابق مع الذات والجماعة المحلية، وما تستثمر من ترسيخ مقاوم للاختراق، إذ هيمن الاستمرار والتضامن عن القطيعة والتشتت، أثناء تخطيب السمة الدارجة مع اللغة الواسمة للعجب، لتتجلى الواحة فضاء لغرس الهوية، والنخل مستودعاً لحفظ اللقب والنسب

(تمسوفت) صور في عمق أفئدة *** على أياد هنا كم تصنع العجبا²⁷

هذا النّخيل غرسناه بأعيننا *** ليحفظ الحبّ والأسماء والنسب²⁸

ليحيلنا إلى فضاءات سياحية ثقافية وأخرى مادية يحميها الإبداع وتنتدبها الهوية اللغوية كواجهة خطابية تستنفر أدوات البعث والجذب، و"تمسوفت" هي مغامرة صياغية مبتكرة متسلّلة من هامش اللغة إلى مركزها، ومنها إلى الشحنة الموغلة في الذاكرة السوفية، وقد قيل أن أهلها الأولون "قالوا نسكن تلك السيوف، أي الكتيان الرملية، فصارت بتصرف الألسنة (سوف)"²⁹.

إنّه مضمير انغماس الذراع في الرمل وانغماس الرمل في العرق والتّحدّي، والنفوذ إلى طبقات العزيمة الرّاسخة في التّبض قبل النّص، لتعلن القبض على أنساق عجائبية الوقع، تنعشها أخرى مخاتلة الرؤية والرّؤيا، ثمّ يحزّرها كتيب هرمي مقلوب، متخفّ بالطّفر قبل الحفر، قبل أن يعلن نفسه بسيطة لواحة تجبر خاطر النّمودج المحلّق، مثلما تجبرك على الهبوط إلى المركز، لتغنم واحة عسليّة التّمّر، خضراء الجريد، تزيد بنسائم صيفها الباردة من فضفضة القندورة، ليكون درساً للحقيقة والأسطورة، توثقه الدّواوين مخافة أن تمحوه السّبورة...

حملت يا سوف أحزاناً مراقصة *** على الطريق وكنت أنت لي سببا³⁰

يا قبة الخلد يا مهدي و يا سفري *** ضاعت قلاعي ورملي من دمي شربا³¹

"هكذا تضيق العلاقة بالعالم الخارجي عند لحظات تدهور معالم الهوية الجماعية...ويتحول الفرد نفسه إلى موضوع لأناه، وتصبح الأنا وعيا بالذات"³².

في نص "هنا ولدت" للشاعر محجوب بلول

إنّه قلق الهوية الصحراوية الأسرة من المحو والضياع، ومحاولة ترميمها (بالشعر) باستعارة الغياب للحضور تصدياً بفتنة الزمن المسلح، وتأبيدها فيما (بين سطور الشعر) باستعارة الخيال للفكرة بفتنة الزمن المضارع المجنّح.

إذ لم تكن الأيادي التي هنا كم (تصنع العجبا)، إلّا حضورا نسقيًا مخاتلا بفعل الأوان، سرعان ما استبقه غياب نسقي متوقّد بفعل الانقضاء (تمسوفت، غرسناه)، قبل أن يتشظى تماما بجمر الفجوة (الشكوى، التعالق / الحزن، العلة / الفكّ، الارتباط)

إنّ اضطراب تنغمّ الصوّت الثقافي للخطاب بروافده الهوياتيّة العقيديّة والقيميّة، وتأسّراته التراثيّة والمعماريّة، ايقاع يضبطه التجيش الجماعي لبوارق الحزن، وشحنة لنسق مرتد، وجرس لدقّ اليقظة، مجابهة لقبحيات حضارية مدمرة، تهيمن بتوطین المسخ قبل الزيف فوق رمل الحقيقة، وتعويم الغيرة قبل النخل في مياه الغفلة والضياع، إذ "بات المصير الاجتماعي للأفراد أقل ارتباطا مباشرا لهم بأصولهم تحت هيمنة التحديث³³ وأنّ "المقاومات له تشكّل استثناء"³⁴

ورغم ذلك يظلّ تسويق الخصوصية المحليّة بنسقتها الفردي والجمعي ودوائرها التراثيّة والعرفيّة في تخوم الخطاب الأدبي، كأكثر أشكال المقاومة الفنيّة انخراطا في حماية القلاع التي يتحصّن بها المركز الهويّاتي من تغوّل التّغريب والتآكل والاندثار.

الخاتمة والنتائج:

ومن خلال ما سبق يمكن أن نصل إلى حصيلة تستهدف حيثيات تداول القراءتين ببعدهما الجمالي والثقافي، بمقاربة تستهدف تبادل الاشتغال بين شعرية المكان وأنساق الحيز، وانزياح الصورة وارتباك ثبات الهوية، ليتبين أن جلاء الخطاب بمؤشراته العامة أو بوجهته السياحية الصحراوية، يتطلب توغلا في الملابس الفكرية والنسقية تحت سقف الفضاء الثقافي، مثلما يتطلب سفرا مع محطات الخيال والمجاز فوق سقف الفضاء الجمالي، كما نخلص إلى عدم اكتفاء الرؤية الشاملة بالاختصار على قراءة واحدة دون أخرى، فهما كل متكامل، فلم يكن لينتبه النقد الثقافي أو يتجاوز محركه الإغرائي الأسبق، حين تفرد النص الشعري بالعناصر الجمالية ليلفت انتباه الثقافي إلى كينونته بالتحقق الفني والصيت الجمالي، كما لم يكن هذا الحراك النقدي الأخير ليستمر في التخندق في قلاعه الحاملة، دون منسوب متصالح مع الوعي الجمالي المنشود، هذا وكشفت الصحراء عبر إلهامها وأسرارها، و مكوناتها المكانية والثقافية والتراثية، عن كونها خزاناً لا ينضب في التأسيس لخطاب صحراوي ترويجي أخذ بإغراء وجذب الزائر الافتراضي و الحقيقي على حد سواء.

هوامش وإحالات المقال

¹ آمنة بلعلي، سيمياء الأنساق، تشكّلات المعنى في الخطابات التراثية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ص: 64.

² عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2000، ص: 83.

³ خليل الموسى، آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2010، ص: 9.

⁴ عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص: 302.

في نص " هنا ولدت " للشاعر محجوب بلول

- ⁵ محجوب بلول، تقاسيم سفر، مجموعة شعرية، دار الثقافة محمد الأمين العمودي، الرابطة الولائية للفكر والابداع، الطبعة الأولى، ماي 2009، ص:17.
- ⁶ غاستون باشلار، نقلا عن غادة الإمام، جماليات الصورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص:291.
- ⁷ محجوب بلول، المصدر السابق، ص:17.
- ⁸ غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1404هـ، 1984م، ص:188.
- ⁹ محجوب بلول، المصدر السابق، ص:17.
- ¹⁰ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، د.ت، ص:106.
- ¹¹ محمد عبد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1982، ص:17.
- ¹² محجوب بلول، المصدر السابق، العتبة الخلفية للغلاف.
- ¹³ محجوب بلول، نفس المصدر، نفس العتبة.
- ¹⁴ محجوب بلول، نفس المصدر، ص:17.
- ¹⁵ خزل الماجدي، العقل الشعري، دار الرافدين، لبنان، بيروت، الحمراء، الطبعة الثالثة، 2020، ص:77.
- ¹⁶ أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الاسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2005، ص:7.
- ¹⁷ محجوب بلول، المصدر السابق، ص:18.
- ¹⁸ نفس المصدر، ص:18.
- ¹⁹ نفس المصدر، ص:18.
- ²⁰ نفس المصدر، ص:17.
- ²¹ عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للنشر والطباعة والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، 2007، ص:298.
- ²² محجوب بلول، المصدر السابق، ص:17.
- ²³ محجوب بلول، قلم يتحمل المسؤولية، مطبعة الحفيد لكل الأعمال، الوادي، الجزائر، 1997م، العتبة الخلفية للغلاف.
- ²⁴ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، لبنان-بيروت، 2000، ص:79.
- ²⁵ نفس المرجع، ص:21.
- ²⁶ هوك لاغرانج، نكران الثقافات، ترجمة سليمان رياشي، مراجعة أحمد مراد وسعود المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2016، ص:21.
- ²⁷ محجوب بلول، المصدر السابق، ص:18.
- ²⁸ نفس المصدر، ص:18.
- ²⁹ مجموعة من المختصين، وادي سوف دراسات تاريخية واقتصادية وثقافية متنوعة، الجمعية الثقافية للمركز الثقافي بقمار، الطبعة الأولى، مزوار للطباعة والنشر والتوزيع، الوادي، الجزائر، 2008، ص:14.
- ³⁰ محجوب بلول، المصدر السابق، ص:18.
- ³¹ نفس المصدر، ص:18.
- ³² حسن نجعي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، دراسة نقدية، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000، ص:84.
- ³³ هوك لاغرانج، نكران الثقافات، المرجع السابق، ص:21.
- ³⁴ نفس المرجع، ص:21.